زئبقية الزمان في رواية "الأسود يليق بك" لأحلام مستغانمي

أ-لمياء عيطو

جامعة العربي بن مهيدي – أم البواقي-

إن قضية الزمن من أكبر وأعظم الأمور التي شغلت التفكير البشري منذ القدم، فقد أصبح من القضايا الجوهرية التي اجتمع وتحولق حولها الفلاسفة والعلماء وحتى الأدباء، باعتباره القوة المتحكمة في حياتنا والمحددة لمتطلباتنا وأشيائناوبه بدأت حياتنا وفيه ستنتهي؛ فهو المجرد الذي لا يمكننا الإمساك به والتأكد من صفته إلا عبر تجسده بأجسامنا التي يعتريها الهرم وأمور أخرى لا تكاد تعد ولا تحصى.

فالزمن إذن من الظواهر النفسية لا المادية ومن المجردات لا من المحسوسات، يتجسد الوعي به من خلال ما يتسلط عليه بتأثيره الخفي غير الظاهر، لا من خلال مظهره في حد ذاته؛ « فهو وعي خفي لكنه متسلط ومجرد لكنه يتمظهر في الأشياء المجسدة »[1]؛ إذا فالزمن لا يوجد مستقلا عن الأشياء حيث لا يمكن تصوره مستقلا بذاته كما لا يمكننا تصور الأمور الحياتية وهي بعيدة عن باب الزمنية، وهو الأمر الذي يجعل من الزمن متعدد الأشكال والدلالات المحدِّدة لطبيعته ضمن نطاق الخبرة الذاتية أو ضمن نطاق حياة إنسانية تعتبر حصيلة هذه الخبرات، وبذلك يصبح الزمن خاصا شخصيا ذاتيا وكما يقال في الغالب الأعم نفسيا.

إن الإنسان بطبيعته البشرية كائن مكون من مركّبين أساسيين، مركب مادي وهو الجسد ومركب معنوي هو الروح، وهو بهذه التركيبة يعيش حالة تمازج وتماهٍ في العالم الخارجي؛ فلا يمكن أن تقطع أو تبتر تلك العلاقة لأن الإنسان يعيش من خلالها ثنائية استلزامية هي ثنائية زمنية تتكون من: « زمن الأنا وزمن العالم »[2] ؛ أما زمن الأنا فهو من الحقائق المثبتة بحيث أن الكثير من الأدباء والمفكرين والفلاسفة تعرضوا له بالبحث والتحليل فجعلوا كل شيء خارجا عن الذات الإنسانية لا وجود له باعتبارها الوعي المدرك، وبذلك يكون « العيش على إيقاع زمن الأنا حقيقة وليس وهما »[3]وهذا إن دلَّ على أمر فإنه يدل على أننا نفكر بالزمن الذي نعيشه بصورة حضورية مباشرة، وبذلك يصبح « الزمن في طبيعته كمعطى مباشر من وجداننا »[4]، وهذه الطبيعة النفسية للزمن لا يمكن حصرها في الجانب الحياتي فقط بل يمكن إدراجها في باب الأدبية بحيث أصبح هذا النوع من الأزمنة هو الشائع والمطلوب في الأعمال الشعرية والسردية على حد سواء؛ فالشعر هو ألصق الأنواع بوجدان الشاعر يعبر من خلاله عن همومه وتطلعاته وما يريده في هذه الحياة

الدنيا، فلا بد أن يضمّن شعره موقفا من زمنه معبرا فيه عن معاناته وهواجسه وعن نظرته إلى الحياة وعن مصيره المحتم إلى الموت.

والرواية هي أوسع الفنون وأكثرها مقدرة على احتواء معضلات العصر والبحث فيها، وفيها يسجل الروائي قضايا شائكة تحيل إلى أزمنة متعددة وشيوع « هذه الظاهرة النفسية وتكرارها في الأعمال الأدبية لم يجعل منها بضاعة كاسدة »[5]بل جعل منها قدرة إنسانية عظيمة.

ثم إن الدراسات التي قام بها علماء النفس قد سعت إلى تفسير تلك الثنائية الزمنية التي لا يمكن للنفس البشرية تجاوزها، وبهذا السعي استفاد كل من المسرح والأدب، هذا الأخير الذي اتخذ اتجاهات جديدة ركز فيها على المشكلات النفسية والعقد الجنونية لجيل كثرت فيه الانحرافات والتجاوزات؛ فالزمن النفسي هو الذي يتعلق بالواقع الداخلي والمعاناة الفردية والفيلسوف "كانط" يرى بأن: « الزمن هو شكل تجربتنا الداخلية »[6] التي تتمظهر في عدة أشكال كالذاكرة التي لا تقاس بمعايير الزمن الرياضية كونها تدخل باب المجردات التي لا تخضع للمعالجة الكمية.

وقد ربط "أبو نصر الفارابي" سرعة مرور الزمن وبطئه بالحالة النفسية للمعاين فقال: « لا يحس بالزمان الذي فعل الشيء ولا يضجر به ويواظب عليه أكثر، فإن الإحساس بالزمان يتبعه تخيل التعب أكثر فيوهم الإحساس به، إذ كان التعب إنما يلحق عن الحركة، والزمان لاحق لها »[7] ،والسر في ذلك يكمن في نفسية الإنسان حيث إن الفرد الذي يقوم بأعمال محببة إلى قلبه لا يحس بمرور الزمن، في حين يكون العامل الضجر الكاره لعمله في حالة استنفار زمنية يحس الوقت وكأنه حمل ثقيل على ظهره ولا يصدق متى يسقط ذلك العبء.

أما "هنري برجسون" فيرى بأننا « نضع حالاتنا الشعورية جنبا إلى جنب – بطريقة معينة نستشعرها جميعا – أي ندرك الإدراك الحسي في آن واحد، ليس واحدا وراء الآخر ولكن إلى جانب بعضها البعض »[8]،وعليه الزمن السيكولوجي أو النفسي هو الأصل في حين يكون الزمن الفيزيائي زمنا عارضا لا غير؛ فالزمن عنده عبارة عن حركة شعورية داخلية تحسها النفس تسير في غير تجانس بعكس الزمن الفيزيائي الذي لا يمكن أن يحيد عن نظام الساعات والدقائق فلا يمكن فيه للفرد أن « يعيش اللحظة الواحدة مرتين »[9]في حين يعيشه نفسيا مرة ومرتين و ثلاث...

وقد أعجزت مرونة الزمن أقطاب الفكر فكان عندهم في الأدب : « كما يخبره الفرد ذاته لا كما يسجله العالم الطبيعي أو المؤرخ، الزمن مشحون بالمغزى بالنسبة للإنسان لأن الحياة الإنسانية تُعاش في ظل الزمن »[10]؛ فهو الباب الذي من خلاله يعبر الفرد عن خبرته الذاتية التي يكتسبها، ثم إن هذا الزمن الذي يرتبط به الفرد ويستعمله هو زمن « مطاط فالانفعالات التي نشعر بها تمدده وتبسطه، والتي نوحي بها تقلصه، والعادة تملأه »[11]؛ فالزمن قد يطول وقد يقصر فيبدو في بعض الأحيان طويلا جدا وأحايين أخرى قصيرا جدا، لكن نسبة الطول والقصر تلك هي من الأمور الصعبة التحديد؛ لأن الزمن الداخلي « يتغير كثيرا تبعا للظروف، فيسير الزمن بخطى مختلفة تبعا لاختلاف الأشخاص، وفي الواقع في مناسبات مختلفة لدى الشخص الواحد لأن الفرد يحمل المكان والزمان معه كطرق إدراكه الحسي، فهناك الذين يمشي معهم الزمن، والذين يخب معهم الزمن، والذين يعدو معهم الزمن، و الذين يقف معهم ساكنا»[12].

إذاالزمن النفسي هو زمن ذو طابع زئبقي دائم الحركة والانسياب، يعمل على رصد وتشخيص الحالات الداخلية الدائمة التغير والتحول في مكامن الشعور البشري، فلا يمكن لأي كان إمساكه ولا حتى لمسه.

وعليه فإننا نقف أمام سؤال يطرح نفسه وهو كيف استخدمت " أحلام مستغانمي " هذا النوع من الزمن؟ وهل وفقت في رصده عبر نفسيات شخصياتها المفترضة؟

1-امتداد الزمن:

كثيرة هي الأمور التي تنغص حياة الإنسان فتجعله مهموما مكتئبا قلقا بسبب انتظاره وترقبه الدائمين لما سيحل به، فنحن نقلق على شيء نخاف أن يحدث أو يتم إذا كنا لا نريد تمامه، وعندما نريد أمرا آخر فنقلق كذلك ولكن عبر التساؤل هل سيتم على وجه حسن كما نهوى أو لن يتم، فالقلق يغزو حياتنا فيجعلنا « نشعر بالزمان يتباطأ قليلا، حتى لا نكاد نشعر به يمر، وإذا زاد القلق وبلغ أوجه شعرنا بأن الزمن قد وقف نهائيا، وهذا الشعور بوقوف الزمن هو الشعور بالآن...فالشعور بالآنات لا يتم حقا إلا في حالة القلق الهائل، وهذا يفسر لنا لماذا نشعر بطول الزمان جدا في حال القلق والخوف»[13].

ظهر عامل القلق في رواية " الأسود يليق بك" بصورة جلية واضحة من خلال حالات الترقب الكثيرة التي كانت تعيشها شخصية " هالة "، بسبب شخصية تلتحف عباءة الغموض، مما جعلها تتجرع مرارة السجن في زنزانة الانتظار، هذه الأخيرة التي لها أثر هادم في النفس بحيث تجعل السجين تعتريه حالة من الرهبة والانقباض والإحباط، ثم تجعله يتدرج في الاعتياد عليهاوعلى الخلخلة التي تطرأ على نظام حياته.

ونحن نلحظ هذه الظاهرة تقريبا من بداية الرواية حتى مشارف النهاية بادية بكثرة «...كيف عرف هذه المرة أيضا مكان إقامتها، ومن يكون هذا الذي يتحكم في نشرتها العاطفية مدّا وجزرا؟...لو أنّها ما تحدثت إليه على الهاتف، لخالته أحد المرضى النفسانيين. لكنه يبدو رصينا وصارما في قراراته، بقدر مكر مناوراته، رجل في كل غموضه الآسر، غموضه المرعب. ما توقعت وهي تقبل بقواعد لعبته، أنّها كانت عند أول خطأ معرضة لصاعقة فقدانه. أيعقل أن تكون فقدته حقّا لمجرّد كونها لم تتعرّف إليه؟...»[14].

إذًاالبطلة هنا تعيش حالة قلق بسبب غموض الشخصية التي تعيش معها مرحلة التعرف، كما تعيش في الآن ذاته حالة خوف من خسارة غير مبررة لعدم توافر قواعد محددة ترتكز عليها في اتخاذ قراراتها، حينهاسوف تقع في حالة أسى لفقدان شيء لم تمتلكه أصلا، وهو ما جعلها تعيش واقعا مريرا يمر الوقت فيه ببطء شديد، فيجعلها تحس اللحظة الراهنة طويلة جدا، وهي حقيقة أثبتتها الدراسات النفسية وتجاوزتها الموضوعية؛ حيث أثبتت دراسات علم النفس أن «الحاضر بالنسبة إلى الزمان الرياضي لا دوام له ولا وجود له في الواقع..أما من جهة الزمن النفساني فإن للحاضر وجودا وواقعية »[15]، فالحاضر أو الآن هو بمثابة نقطة عبور نحو الماضي والمستقبل وهو ما أكده الفيلسوف "ليبنتز" بقوله « الحاضر مفعم بالماضي مثقل بالمستقبل»[16] فلا يستطيع الإنسان أن يعيش قاطعا لحبال الوصال مع الماضي والمستقبل، فيعيش اللحظة الراهنة مسترجعا من ماضيه ما قد يشعره بالفرحة أو الحزن، مستشرفا لمستقبل هو بمثابة صندوق مغلق ضاعت مفاتيحه فبقي محتواه غامضا يحاول كل شخص أن يحدد معالمه وفقا لأحلامه التي تتغير بين الفينة والأخرى.

والقلق من العوامل التي تؤدي إلى اختلال الإيقاع بين الزمن الكرونولوجي الخارجي والزمن السيكولوجي الداخلي، ليشعر حينها الإنسان بمرور الوقت ثقيلا أو قد يشعر به متوقفا تماما، والفيلسوف "برجسون" يرى بأن النفس والجسم « شبيهان بخطين حديديين يتقاطعان في زاوية واحدة»[17] وعند ذلك تشتد قسوة الزمن ساعة الإحباط والكآبة بسبب الوحدة القاتلة، وهو تماما ما حدث لعاشقة تمنت الوصال ولو في اتصال هاتفي الأمرالذي جعل ساعتها البيولوجية تختل «فمنذ قررت أن تقاطع هواتفه، استعادت عافيتها، أو على الأصح، خفّ ألمها. منذ اللحظة التي طلبها ولم تتحرّك يدها للردّ عليه، بدأ العدّاد يعمل لصالحها، وما عاد عليها أن تعدّ الأيّام والساعات وتفكّر ماذا عساه يشغله عنها...»[18]. فـ"هالة" كانت تعيش حالة قلق بسبب العزلة التي عاشتها في انقطاعها عنه، حيث أصبحت لا تحس بحرارة العيش وهي تقيس حجم الإهانة، كما لو أنها زودت بعدّاد لمعرفة قدر الألم الذي يجعل السبعة أيام والنصف تشابه الدهر في طوله.

وهكذا يصبح القلق مجالا لتصارع الأفكار وإثارة الذات لكي تحقق مساعيها مهما كانت العوائق، فعندما يتحول القلق إلى معنى زمني تسقط الأوهام والخوف المؤدي إلى الهروب والتراجع عن مغالبة المصاعب، ليتحول بذلك إلى قلق فاعل في الوجود بحيث يحول رتابة حياة الإنسان إلى طاقة فاعلة تمتد وتتسع لكي يتمكن من السيطرة على الظواهر الطبيعية لتطوير حاجاته الحياتيةوهو ما حدث مع هالة بعد أن « قرأت يوما أن راحة القلب في العمل، وأن السعادة هي أن تكون مشغولا إلى حدّ لا تنتبه معه أنّك تعيس، فهجمت على العمل طمعا في نسيانه...»[19].

والقلق ليس بالعامل الوحيد الذي يؤدي إلى طول الزمن ورتابته وإنما هناك عوامل أخرى كعامل الترقب والانتظار، والذي دخل هو الآخر باب الدراسات النفسية فتحدث عنه الكثير من العلماء وجعلوه من العوامل التي لها بالغ الأثر في خلخلة النظام التقديري الصحيح له «فالزمن في حالة الانتظار يبدي احتمالاته النسبية إليك، ضيق أم واسع، أو حتى إذا بقي على حاله ساكنا، وعلى مقدار ما كان يروق لك المستقبل أو تنفر منه، وعلى الحالة التي كنت عليها شخصيا»[20] و"طلال هاشم" بطل الرواية يعيش حالة الترقب والانتظار لامرأة هي بمثابة الحلم الجميل عنده، فحالة الفراغ العاطفي الموحش التي يعيشها، والأسئلة الدائمة الحضور في رأسه حول إمكانية خسارة امرأة تشبه الزهرة البرية تجعله يحس بمرور الوقت ثقيلا كئيبا، «...على الرغم من انشغاله الدائم، ما كان يفارقه هاجس انتظار مكالمتها. في اليوم الخامس، بدأ يساوره الخوف من أن تتوقّف قصّته معها هنا. إنّها فتاة عنيدة وعصيّة، وقد لا ترى مبرّرا لمعاودة الاتّصال به، وعندها، لن يكون من اللائق أن يواصل إرسال الورود إليها. يخشى أن تكون اعتبرته مجرّد معجب لا يستحق أكثر من مكالمة واحدة...»[21] وحالة الانتظار هذه لم تسيطر فقط على البطل وإنما تحولت بعد ذلك لتسيطر على البطلة، فتقلب بذلك الموازين«... عاشت الساعتين السابقتين للحفل بتوتر عال، في انتظار أن يرفع الستار عن جواب حيّر الجميع لغزه: من يكون هذا الرجل؟...»[22]وحالة التوتر التي عاشتها "هالة"لمدة ساعتين في انتظار معرفة هوية ذاك المترف الذي اشترى بماله كل المقاعد ليحتل بعد ذلك مقعدا واحدا جعلتها تحس بأن الزمن يمر برتابة، وهي تتساءل عن الدافع الذي جعله يقوم بهذا العمل؟ فلو كان دافعه عملا خيريا لاشترى عددا محدودا من البطاقات وتبرع ببقية المبلغ، وهذا يؤكد وجود دافع خفي وراء ذلك.

وعليه يكون الزمن السيكولوجي زمنا بعيدا عما يعرف بالترابط المنطقي، كما يبتعد كذلك عن القياسات فتكون بذلك الحالات الداخلية التي يعيشها المرء تأخذ « الاتجاه الذي يأخذه تفكيرنا والصيغة التي تصطبغ بها تأويلاتنا، ترجع في النهاية إلى العاطفة السائدة المسيطرة»[23].

لقد أعجزت مرونة الزمن أقطاب الفكر الأدبي والنفسي والفلسفي على حد سواء، فأصبح كل منهم يبحث عن تفسيرات وتبريرات تكون مناسبة لمجاله الذي يبحث فيه، وها هو ذا "توماس مان" يفصح قائلا « حين يبدو لك الزمان طويلا فهو عندئذ طويل، وحين يبدو لك قصيرا فهو بالطبع قصير، ولكن كم هو طويل أو كم هو قصير هذا ما لا يعرفه إنسان »[24]فالإنسان بعيشه تحت وقع الزمن النفسي يتأثر كثيرا بطوله وقصره ولكن ماذا لو ارتبط العامل النفسي بالعامل الجسمي البيولوجي؟ أكيد سوف تتحدد معالم الكم بصورة أدق فالزمن الذي يعيشه الفرد وهو في حالة مرضية لا يشابه الزمن في الحالات العادية، والمحموم يكون عنده إحساس مختلف بالزمن وهذا ما أثبتته الدراسات الطبية بأن «درجة الحرارة المرتفعة تدفع المريض إلى أن يعد الزمن بأسرع مما يعده في حالته السوية »[25]و"مينوفسكي" تحدث هو الآخر عن هذا التجاوز بين الزمن الذاتي أو النفسي والزمن الخارجي حيث؛ قال بأنه في حالات الانهيار الباطني –حالة مرض–يكون « التعارض بين نمطي الزمن مثيرا، فهنا يبدو الزمن اللازم يبطئ سيره بشكل ملحوظ فريد، وحتى أنه يتوقف، ويأتي هذا التعديل في البنية الزمنية لينضاف إلى الاضطراب البيولوجي الكامن من جهة والعوارض العبادية السارية من جهة ثانية »[26].ولكننا في هذا العمل الروائي الذي قدمته "أحلام مستغانمي"لم نتصادف مع مثل هذه الحالات المرضية التي تجعل الزمن طويلا ممتدا.

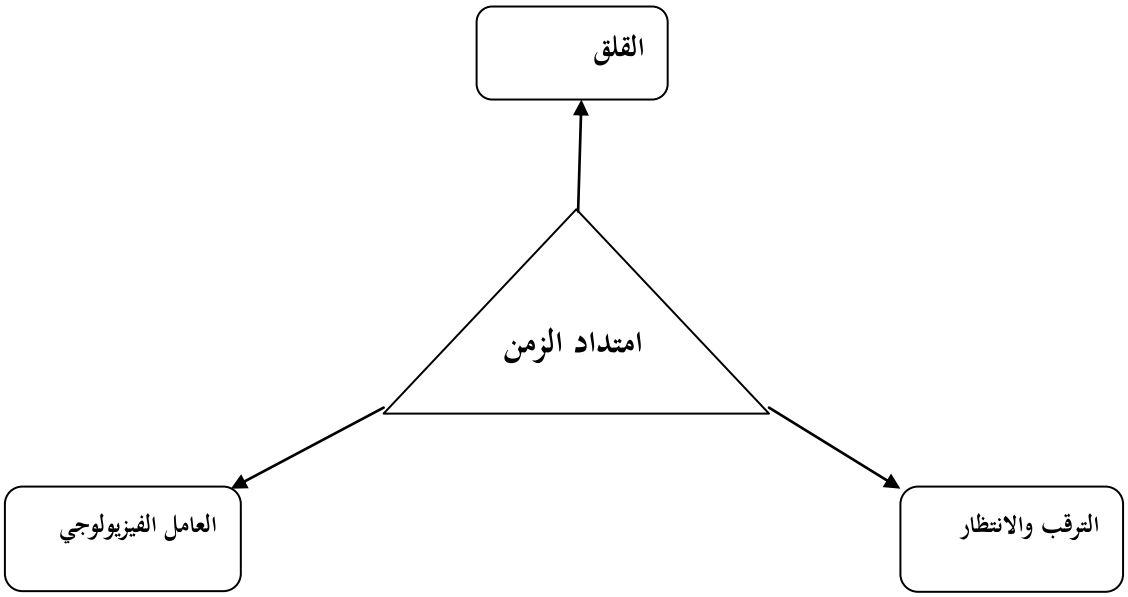

إن المخطط يقدم لنا عدة عوامل لها دور فعال في جعل الزمن يتمدد بحيث يكون طويلا جدا أو يكاد يكون متوقفا، وهي عامل القلق الذي يخلق جوا من الاضطراب في نفسية المعاين فيفقده التقدير الحقيقي للزمن،

وعاملا الترقب والانتظار اللذان يجعلان الزمن يمر ثقيلا كترقب خبر سار، وأما العامل الفيزيولوجي فيرتبط بحالات الإعياء والمرض التي تصيب جسد الإنسان فتعدم عنده الشعور بالزمن وتكون الدقيقة ساعة والساعة يوما...

2-تقلص الزمن:

كثيرة هي الأمور التي تنغص عيش الإنسان كما هي كثيرة الأمور التي تشعره بالفرح والانبساط، لتجعل الزمن النفسي يتقلص بل يكاد يكون معدوماليشعر الإنسان بسرعة مروره وتتحول الساعات الطوال إلى دقائق معدودات.

وظاهرة الزمن المنكمش في رواية " الأسود يليق بك" كانت نادرة جدا لأن الطابع الغالب والمسيطر عليها هو الحزن، و نحن لتمثل هذه الظاهرة سوف نستشهد بالمقاطع القليلة التي توضح فترات زمنية طويلة تقلصت بفعل الأمور الجميلة«...وقفت مدهوشة وهي تراه يتّجه صوب الباب. مشت خلفه بتأنّ كما لتستبقيه وقتا أطول غير مصدّقة أنّ أجل فرحتها انتهى. فقدت صوتها. لا تدري أيّهما كان الأكثر زلزلة لقلبه: مجيئه أم مغادرته. وقفت خلف الباب تودعه صمتا...»[27]. فـ"هالة" التي طالت بها أوقات الترقب والانتظار للحظات السرور ما صدقت أن طرقت بابها لحظات السعادة التي رحلت دون أن تشعرها حتى بحقيقة الموقف، فقد بدت لها تلك اللحظات وكأنها ضرب من الحلم والخيال وهذا يثبت أن أوقات السعادة يتقلص حجمها لتصبح شبه معدومة.

وفي مقطع آخر من الرواية ظهرت صورة شاهدة على تقلص الزمن «... سافرت بأحاسيس متناقضة لم تعرفها من قبل. لم يحدث أن وضّبت حقيبة للّهفة، ولا أخذت تذكرة للسعادة. لأول مرّة أصبح للحبّ مطار وعنوان.. وبيت ينتظرها فيه رجل. بدل أن تسعد أصيبت بذكر السعادة...»[28]فالبطلة في لحظة من السعادة والسرور تشعر بحالة خوف تعتريها فيتقلص معها الزمن لأن الأمور الجميلة في العادة لا تدوم طويلا.

ومن الأمور التي تجعل الإنسان يحس بمرور الزمن بسرعة عامل الثراء، فالمرء الذي تتوفر له مقومات الحياة من الضروريات إلى الكماليات لا يحس بل لا يشعر بمرور الوقت، في حين يمر هذا الأخير على إنسان فقير أو صاحب دخل محدود وكأنه الدهر في طوله؛ كأن ينتظر الموظف البسيط راتبه بفارغ الصبر ليفك به ضائقة مالية، غير أن سيد الغموض في الرواية هو من الذين يحققون اكتفاء في هذا المجال«...

الأثرياء على عجلة من أمرهم. هم لا يملكون طول النفس. يعنيهم الحصول على ما يريدون فورا. في الانتظار إهانة لهم. هم يعانون من جنون العظمة...»[29]، إن الحياة التي يعيشها هذا الشخص حياة تشعره بالثراء وانكسار الزمن وتوقفه، وهذا ما ذهب إليه "غاستون باشلار" حين قال « بأنه يوجد ارتباط عكسي بين الطول النفساني لزمان وبين امتلائه، فكلما كان الزمان مفروشا، بدا اقصر »[30]، إذن فعامل الامتلاء يجعل الزمان يتقلص من خلال قصر الساعات والأيام والشهور.

ثم إن عامل الحب له كذلك دور غير يسير في تقلص الزمن؛ فهو حالة نفسية تعتري الإنسان لتجعله يعيش الساعات لحظات في انسجامه مع الشريك والعكس سوف يكون صحيحا بالتأكيد «...قبل الثامنة بدقائق، نزلت إلى بهو الفندق، لم تكن الساعة في معصمها بل في قلبها. مذ هاتفها والدقائق تركض به. تفقّدت زينتها أكثر من مرّة. صففت شعرها ثم غيّرت تسريحته مرارا. في آخر لحظة قررت أن تجمعه وتسدله على جانب واحد...»[31]، البطلة هنا كانت تتأهب لموعد دام انتظارها له طويلا، وبتحققه أصبحت الدقائق تركض لأن ساعة اللقاء يتحرك الزمان فيها سريعا فتتحول الدقائق إلى لحظات واللحظات إلى هنيهات.

إضافة إلى عامل الحب نجد عاملا آخر لم يظهر في الرواية، إلا أن لديه قدرا كبيرا من الأهمية، وهو العامل الفيزيولوجي أيضا؛ لأن« الناس كلما تقدموا في العمر زادت ملاحظتهم لمرور الزمن بسرعة»[32]، فالشخص المتقدم في السن يدرك بأن الزمن يمر سريعا لأنه اختبر تلك الحالة فصاحب الأربعين سنة يكون إحساسه بالزمن مخالفا لشاب في العشرين من العمر، وعليه يكون للجانب البيولوجي دور كبير في تحريك عجلة الزمن إن لم نقل التسريع فيهاوقد قدم العالم "فيبس" تحليلا دقيقا للظاهرة حيث قال:« بأن درجة حرارة الجسم في الشيخوخة أشد انخفاضا، ومن ثم يبدأ الزمان يتحرك بسرعة »[33].

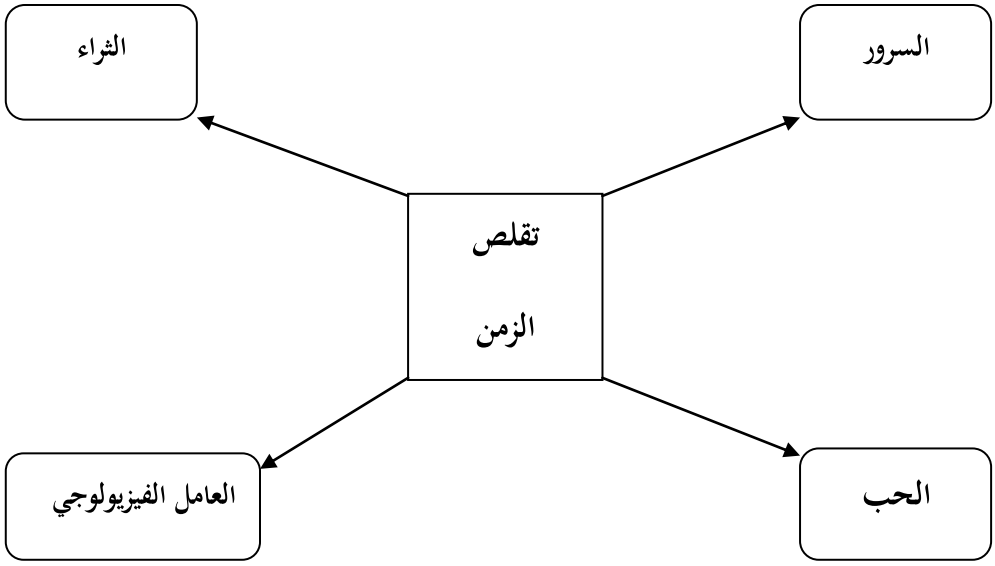

م

من خلال ما سبق ذكره وما هو مبين في المخطط تتبين لنا العوامل المساعدة على تقلص الزمن كالسرور الذي يشعر به الناجح في عملهأو الوصول إلى المبتغى، والثراء الذي يجعل الإنسان لا يشعر بمرور الوقت وكذلك عامل الحب الذي يقلص ساعات اللقاء إلى دقائق، والعامل الأخير هو العمل الفيزيولوجي الذي يتحدد من خلال الدراسات التي قدمها علماء النفس، فالشيخ مثلا يحس دائما بأن الزمن قد مر سريعا .

3-تكثف الزمن:

إن للزمن مظهرين يتراوح بينهما(التمدد والتقلص)، إلا أننا نقول بوجود مظهر آخر هو التكثف، فأحيانا يعيش الإنسان دقائق معدودات يستحضر فيهن ما يقارب الزمن الذي عاشه كاملا، فنجد المفكر "فيبس" ذهب إلى أن « الإنسان حين يداهمه الخطر، كمواجهته خطر الموت المحتوم، يتكثف زمانه، فيستعرض شريط حياته كلها كومضة خاطفة »[34]،فالانفعالات الداخلية تحدث خللا في الشعور بالمدة الحقيقيةوحين قام "برجسون "بربط « تكثف الزمان في حالة الخوف بعامل فيزيولوجي يؤثر في العامل النفسي، اكتشف أن نشاط الدماغ يحدث في مثل هذه الحالات لاهتياج الذاكرة الذي يسببه ارتخاء وظيفي للجملة العصبية »[35]، إذا الحالة النفسية للإنسان تكون خاضعة للجانب الفيزيولوجي في حالات الرعب،وهو ما يؤدي بالشخص إلى استرجاع تفاصيل حياته التي ترسبت في أغوار ذاكرته.

استحضرت "أحلام مستغانمي" هذه الفكرة في الرواية، حيث جعلت البطلة تختبر الخطر من خلال ذهنيتها التصورية للشخص الذي جعلها تنتظر لمدة ساعتين كاملتين لحظة رفع ستار المسرح، كونها قد فقدت الرؤية والقدرة على الفهم، فهي لا تعرف لا الدوافع ولا الأسباب التي دفعته لشراء بطاقات القاعة بأكملها، ليتنازل بعد ذلك عن الصفوف الثلاثة الأولى ويختار الصف الرابع، وفي اللحظة التي يئست فيها من فهمه بدأت تتكثف في رأسها استذكارات سوداوية «...ماذا لو كان مهووسا أو قاتلا؟ هي دائما تفكر في الاحتمالات الأسوأ. قرأت مرة أنّ أحدهم في اسبانيا، قام من مقعده أثناء حفل غنائي، وأطلق النار على المغني وهو يؤدي أغنية عاطفية، فأرداه قتيلا. كانت الأغنية ترتبط في ذاكرته بقصة حب فاشلة !...»[36]،ثم بعد ذلك تستذكر حالة أخرى «...ثم ألم يحدث في مصر أن قتل رجال أعمال حبيباتهن المطربات، إثر نوبة جنون ...»[37]، فشخصية البطلة وهي في حالة رعب لم تستذكر شيئا سوى جرائم متعددة كانت قد وقعت في زمن مضى وتجمعت كلها في لحظة واحدة عبر شريط ذهني مكثف.

وتشهد البطلة حالة أخرى شعرت فيها بأن الخطر يحدق بها من جهتين مختلفتين «...لا تدري كم من الأحاسيس عبرتها في لحظة واحدة. خليط من مشاعر تتجاوز قدرة القلب على فرزها. مزيج من الزهو والحنين والفضول والخوف من انفضاح أمر وجودها في الفندق في ضيافة رجل... وخشيتها أن يكون الآخر يتابع من بعيد حديثها إلى غرباء ...»[38]، فـ"هالة" وقعت في حالة ذعر أثناء لقائها مع جزائريين خوفا من انفضاح أمرها وانكشاف سرها؛ لأنها خلعت ثوبالمبادئ والقيم بوجودها مع رجل غريب بفندق وسط مدينة غريبة من جهة، و خوفها من فقدان ذاك الشخص إن رآها مع غيرهمن جهة أخرى، ولكن الشيء المؤكد هو أن البطلة بعد زوال الخطر ستكتشف بأنها استعرضت « كل الأحداث المنسية في أقصر وقت وبأضأل ظروفها، ووفق عين نظامها»[39].

ومن مظاهر التكثف الزمني نجد الحلم، بحيث تكون أحداثهالتي يختبرها الإنسان في ثوان وكأنها تجربة عمر كاملتكثفت في لحظات قليلة، والكاتبة لم تتطرق لهذا الجانب بصفة كبيرة بل يمكن القول أنه يكاد ينعدم وجوده في الرواية إلا في قولها «...لكننا لا نعرف كيف نروي الحلم عندما نستيقظ منه. لا شيء فيه يشبه ما نعيشه عادة...»[40]، فالحلم يقوم بتكثيف مدة زمنية قد تكون شهورا في لحظات يحسها المعاين طويلة جدا.

إن اختلاف الأزمنة أو الأوقات هو عامل آخر يسهم في تكثف الزمن،فالبطلة في الرواية تتحسس وقتا كئيبا مضى من حياتها « ... اليوم هي تغني للناس جميعا عداه. ليس ثوبها، بل صوتها هو من يأخذ بالثأر، من

ذلك الحفل الذي أجبرها فيه يوما على ألا تغني لسواه. هو اليوم الغائب الأوحد. أوّل ما اعتلت المنصة، اختفى طيفه من القاعة، غدا خلفها، قرر قلبها ألا يلتفت إليه، فالنهر لا يلتفت وراءه. درس آخر تعلمته من حيث جاءت...»[41]، فالملاحظ أن تلك المدة التي اعتلت فيها "هالة"المسرحتضخمت حتى أنها باتت تبدو وكأنها شهور أو أعوام حيث أنها استحضرت اليوم الذي وقفت فيه بمسرح خال إلا منه، غنت له ولا لأحد سواه بثوبها الأسود، ذلك زمن مضى وتولى وأقبل عليها زمن قررت فيه أن تفتح صفحة جديدة تغني فيها للعالم أجمع « بثوبها اللاّزوردي. لون اختارته لها أمها ليبعد عنها العين لفرط بهائها ...»[42].

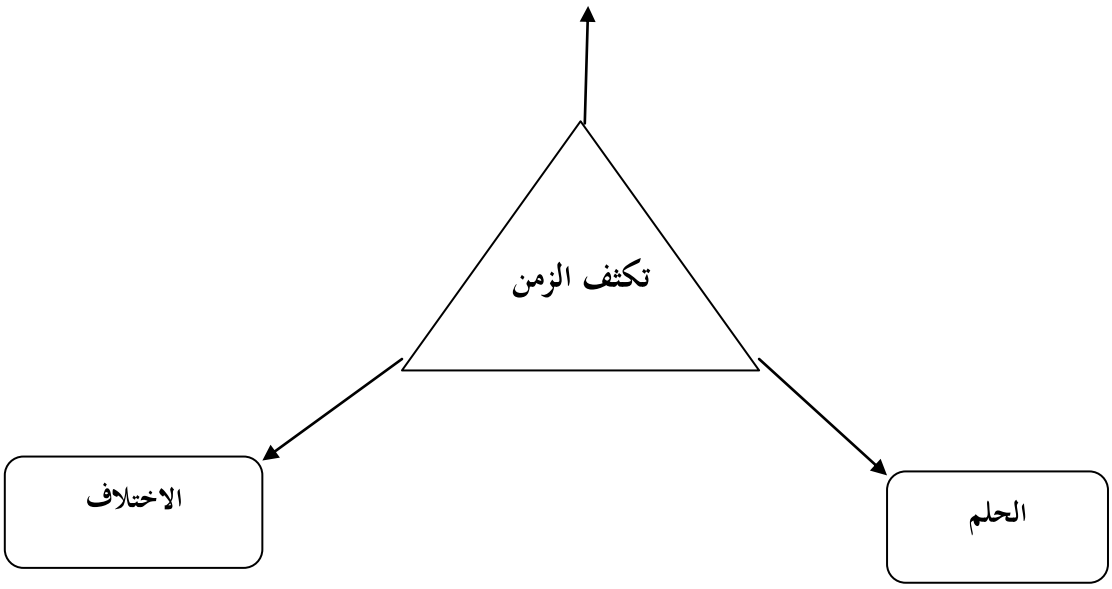

يوضح المخطط المبين أعلاه عوامل تكثف الزمن التي تتمثل في عامل الخطر كأن يجد الإنسان نفسه في مواجهة مع حيوان مفترس فيحس بحالة من الخوف تجعل الزمن يتكثف فيستحضر فترات طويلة من حياته في ثوان معدودة، و الحلم الذي أثبت العلم بأنه لا يستغرق سوى ثوان يحس المرء وكأنه عاش فيه فترات طويلة، وعامل الاختلاف الذي يتحدد بتغير الأزمنة.

ومن خلال ما سبق نخلص إلى حقيقة تفيد بأن أي عمل أدبي ينطلق من زمن واقعي من خلال تجارب الحياة ليرتكز على زمن آخر هو الزمن النفسي الذي تخضع له حالات الشعور الإنسانية المستمدة من الأغوار الباطنية والمختلفة من معاين لآخر .

الهوامش

[1]- عبد الملك مرتاض: في نظرية الرواية، عالم المعرفة، سلسلة كتب ثقافية شهرية يصدرها المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب، الكويت ، ع 24، 1998.ص173.

[2]- غاستون باشلار: " جدلية الزمن "، تر: خليل أحمد خليل، المؤسسة الجامعية للدراسات و النشر و التوزيع، بيروت، ط3، 1992م، ص 114.

[3]- غاستون باشلار: المرجع نفسه، الصفحة نفسها.

[4]- هانز ميرهوف: " الزمن في الأدب "، تر: أسعد زروق، مؤسسة سجل العرب بالاشتراك مع مؤسسة فرانكلين للطباعة والنشر، القاهرة، نيويورك، دط، 1972م، ص ص،10-11.

[5]- هانز ميرهوف: المرجع نفسه، ص 23.

[6]- إميل توفيق: الزمن بين العلم والفلسفة والأدب، دار الشروق، القاهرة، مصر، ط1، 1982م ص 94.

[7]- أبو نصر الفارابي: " الموسيقى الكبير "،تحقيق و شرح غطاس عبد الملك خشبة، دار الكتاب العربي للطباعة و النشر، دط، دت، ص 70.

[8]- إميل توفيق: المرجع السابق، ص 76.

[9]- هنري برغسون: " الطاقة الروحية "، تر: سامي الدروبي، الهيئة المصرية العامة للنشر و التأليف، دط، 1971م، ص 126.

[10]- هانز ميرهوف: المرجع السابق، ص 34.

[11]- هانز ميرهوف: المرجع نفسه، ص 20.

[12]- أ.أ.مندولاو: الزمن والرواية، تر: بكر عباس، دار صادر، بيروت، ط1،1997م.ص 138.

[13]- عبد الرحمن بدوي: الزمان الوجودي، دار الثقافة، بيروت، لبنان، ط3، 1973م.، ص 174.

[14]-أحلام مستغانمي: الأسود يليق بك، دار نوفل، بيروت، لبنان،دط، 2012م، ص 66.

[15]- يوسف مراد: مبادئ علم النفس العام، دار المعارف المصرية، ط5، 1966م، ص 249.

[16]- إميل توفيق: المرجع السابق، ص 94.

[17]- هنري برغسون: " المادة و الذاكرة "، تر: أسعد عربي درقاوي، منشورات وزارة الثقافة و السياحة و الإرشاد القومي، دمشق، ط1967،4م، ص 233.

[18]- أحلام مستغانمي: المصدر السابق، ص 151

[19]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، ص 152.

[20]- فالنتينا إيفاشيفا: " الزمن و الفضاء في الزمن الحديث "، تر: نعمان ماهر، مجلة الثقافة الأجنبية، دار الشؤون الثقافية، بغداد، ع 1، 1990م، ص 48.

[21]- أحلام مستغانمي: المصدر السابق، ص 50.

[22]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، ص 105.

[23]- يوسف مراد: المرجع السابق، ص 69.

[24]- هانز ميرهوف: المرجع السابق، ص 19.

[25]- فيبس إي دابليوجي: " زمان الجسم "، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع 159، 1992م، ص 155.

[26]- غاستون باشلار: المرجع السابق، ص 115.

[27]- أحلام مستغانمي: المصدر السابق، ص 141.

[28]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، ص 205.

[29]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، ص 117.

[30]- غاستون باشلار: المرجع السابق، ص 52.

[31]- أحلام مستغانمي: المصدر السابق، ص 172.

[32]- أحمد محمد عبد الخالق: " قلق الموت "، عالم المعرفة، المجلس الوطني للثقافة و الفنون و الآداب، الكويت، ع 111، مارس 1987م، ص 141.

[33]- فيبس إي دابليوجي: المرجع السابق، ص 155.

[34]- فيبس إي دابليوجي: المرجع نفسه، ص 150.

[35]- هنري برغسون: المرجع السابق، ص 16.

[36]- أحلام مستغانمي: المصدر السابق، ص 110.

[37]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.

[38]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، ص 257.

[39]- هنري برغسون: المرجع السابق، ص 162.

[40]- أحلام مستغانمي: المصدر السابق، ص 183.

[41]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، ص328.

[42]- أحلام مستغانمي: المصدر نفسه، الصفحة نفسها.